

الآداب المعنوية للصلاة، الإمام الخميني: أحاديث في الترغيب في حضور القلب



الفصل التاسع

أحاديث في الترغيب في حضور القلب

في ذكر قليل من أحاديث أهل البيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم في الترغيب في حضور القلب، ونحن نكتفي هنا بذكر بعضها :

فعن الرسول الخامنئي عليه السلام كأنك تراه ، وان لم تكن تراه فإنه يراك" ، يستفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب، الأولى: أن السالك يكون مشاهداً جمال الجميل في تجليات حضرة المحبوب على نحو تكوه جميع مسامع قلبه مسدودة عنسائر الموجودات، وتكون بصيرته مفتوحة لجمال ذي الجلال الطاهر ولا يشاهد غيره، وبالجملة يكون مشغولاً بالحاضر وغاً فلا عن المحضر والحضور، والمرتبة الثانية التي هي دون تلك المرتبة أن يرى السالك نفسه حاضراً في محضره ويلاحظ أدب الحضور والمحضر، فالرسول الأكرم كأنه يقول إن كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الأول وتأتي بعبادة الله على ذلك

النحو فا فعل وإنما فلا تغفل عن أنك في المحضر الريبوبي . ولمحضر الحق تعالى أدب تكون الغفلة عنه لا محالة بعدها عن مقام العبودية، وإلى هذا أشير في الحديث الذي رواه أبو حمزة الثمالي (الثمالي هو أبو حمزة ثابت بن دينار الثقة الجليل صاحب الدعاء المعروف في أشعار شهر رمضان. كان من زهاد أهل الكوفة ومشيا يخها وكان عربياً أزدياً)، روى عن الفضل بن شاذان قال : سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول : أبو حمزة الثمالي في زمانه كسلمان الفارسي وذلك أنه خدم أربعة مذاماً علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وببرهه من عصر موسى بن جعفر عليهم السلام . انتهى. (كتش) عن علي بن أبي حمزة في خبر قال: قال الصادق عليه السلام لأبي بصير: إذا رجعت إلى أبي حمزة الثمالي فأقرئه مذمي السلام وأعلمـه انه يموت في شهر كذا في يوم كذا . قال أبو بصير : جعلت فداك وآلاً لقد كان فيه أنس، وكان لكم شيعة. قال: صدقـت ما عندنا خير لكمـ. قلت: شيعـتكم معـكم ؟ قال: انـ هو خافـ آلاـ وراقبـ نبيـهـ وتـوقـيـ الذـنـوبـ إـذـاـ هوـ فعلـ كـانـ معـناـ فيـ درـجـتـنـاـ . قالـ عـلـيـيـ: فـرجـعـنـاـ تـلـكـ السـنـةـ فـلـمـ لـبـثـ أـبـوـ حـمـزـةـ إـلـاـ يـسـيرـاـ حـذـيـ تـوـفـيـ رـحـمـهـ آـلـاـ . مـاتـ فـيـ سـنـةـ خـمـسـيـنـ وـمـئـةـ (قـنـ) رـضـيـ آـلـاـ عـنـهـ، قالـ: "رأـيـتـ عـلـيـيـ بـنـ الـحـسـينـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـصـليـ فـسـقـطـ رـدـأـوـهـ عـنـ مـنـكـبـهـ فـلـمـ يـسـوـهـ حـتـىـ فـرـغـ مـنـ صـلـاتـهـ، قالـ: فـسـأـلـتـهـ عـنـ ذـلـكـ، فـقـالـ: وـيـحـكـ أـتـدـرـيـ بـيـنـ يـدـيـيـ مـنـ كـنـتـ ؟ـ"ـ .

وفي حديث أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وآله "إن" الرجلين من أمتي يقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض" وقال النبي صلى الله عليه وآله: "أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه إلى حمار". وقال صلى الله عليه وآله: "من صلاته لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله ذنبه" وعنده صلى الله عليه وآله "إن من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر وان منها لما تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها" وان "مالك في صلاتك إلا ما أقبلت عليه بقلبك". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله إليه، أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف وأطل الله الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفه من حوله إلى أفق السماء و وكل الله به ملكا قائما على رأسه يقول أيها الممددي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبدا".

وقال الصادق عليه السلام: "لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة فإذا صليت فأقبل بقلبك إلى الله عزوجل فإنه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عزوجل في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيده مع مودتهم إيمان بالجنة". وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهم قالا: "إن مالك في صلاتك إلا ما أقبلت عليه فيهما فإن أوهمها كلها أو غفل عن آدابها لفت فضرب بها وجه صاحبها". وعن أبي جعفر عليه السلام قال: "إن العبد ليعرف له من صلاته نصفها أو ثلثها أو

ربعها أو خمسها فما يرفع منها له إلا ما أقبل عليه منها بقلبه وإنما أمرنا بالنافلة ليتم لهم بها ما نقصوا من الفريضة .

وعن الصادق عليه السلام "إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها لأنك إن أقبلت أقبل الله إليك وإن أعرضت أعرض الله عنك فربما لا يرفع من الصلاة إلا ثلثها أو ربها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلي إليها وإن الله لا يعطي الغافل شيئا ". (أقول: نقلت الحديث الصادقي عن الترجمة للأستاذ دام طله .)

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : " يا أبا ذر ركعتان مقتضتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه (لاه) " والاحاديث في هذا الباب كثيرة وهذا المقدار كاف لأرباب القلوب اليقطة وأصحاب الاعتبار . (قال المحدث الجليل الفيض الكاشاني .. إن قيل: المستفاد من هذه الآيات والأخبار أن الصلاة من يغفل عنها يقول فيها وي فعل، ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها . والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير والتوجّه عنده . فكيف التوفيق، وأيضا فإن المصلي في صلاته ودعائه مناج ربّه كما هو معلوم . وقد ورد في الخبر أيضا، ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، والكلام إعراب عما في الضمير ولا يصح الإعراب عمّا في الضمير إلا بحضور القلب فأي سؤال في قوله اهدنا الصراط المستقيم إذا كان القلب غافلا ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار، الحمد والثناء والتضرع والدعا . والمخاطب هو الله تعالى وقلب العبد بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة . مما أبعد هذا عن المقصود بالصلاحة التي شرعاً لتصفيق القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الإيمان بها هذا حكم القراءة والذكر، وأما الركوع والسجود فالمعنى التعظيم بهما قطعا . والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ؟ وإذا خرج عن كونه تعظيميا لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعل عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدّم على سائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص .

فاعلم أن بين القبول والأجزاء فرقا، فإن القبول من العبادة ما يتربّ عليه الثواب في الآخرة وتقرّب إلى الله زلفى ، والأجزاء ما يسقط التكليف عن العبد وان يتب عليه، والناس مختلفون في تحمل التكليف، فالتكليف إنما هو بقدر حوصلة الخلق وقابلتهم في سعتهم وقصورهم، فلا يمكن أن يشترط عليهم جميعا إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا أن يشترط منه ما يطلق الاسم ولو في اللحظة الواحدة وأولي الخطاب به لحظة التكبير والتوجّه فاقتصر على التكليف بذلك، ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر للقلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحديث ناسيا، صلاته باطلة عند الله ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر تصوّره وعذرها، وقد

ذكرنا في باب العقائد في الفرق بين العلم الباطن والظاهر أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصرّح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع .

وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه يبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حي لا حرّاك به قريب من الميت. فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير حي لا حرّاك به.

وقال أيضاً: اعلم أن المعاني الباطنة التي بها يتم حياة الصلاة بجمعها ست جمل وهي: حضور القلب والتفهّم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياة . فالاول حضور القلب، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلّم به، فيكون العلم بالفعل والقول مفروناً بهما ولا يكون الفكر جارياً في غيرهما، ومهمماً انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حمل حضور القلب ثم التفهّم لمعنى الكلام وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللطف ولا يكون حاضراً مع معنى اللطف، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللطف هو الذي أرداه بالتفهّم، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس إذ ليس يشترك الناس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات، وكم من معانٍ لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فإنها تفهم أموراً، تلك الأمور من الفحشاء والمنكر لا محالة .

ثم التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم، إذ الرجل، ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون عظماً له .

ثم الهيبة: وهي زائدة على التعظيم، إذ هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى مهابة بل الهيبة خوف مصدره الإجلال .

ثم الرجاء: فالعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواباً كما أنه خائف بتقصيره عقاباً .

ثم الحياة: ومبذؤه استشعار تقصير وتوهّم ذنب، ولنذكر أسباب هذه المعاني الستة :

فاعلم أن حضور القلب سببه الهمّ، فان قلبك تابع لهمّك فلا يحضر إلا فيما يهمّك، ومهمّك أمر حضر القلب شاء أم أبي فهو مجبول عليه ومسخرٌ فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل كان حاضراً فيما الهمّ مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة

إلى الصلاة، والهمّة لا ينصرف إليها ما لم يتبيّن أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وان الصلاة وسيلة إليه، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقيقة الدنيا ومها نتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة .

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمّر لرفع الخواطر الشاغلة، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها يعني النزوع عن تلك الأسباب التي تتحدث الخواطر إليها، وما لم تنتقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب بهجم على القلب بالضرورة، ولذلك ترى من أحب غير ألا لا تصفو صلاته عن الخواطر .

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد بين معرفتين، أحدهما معرفة جلال الله وعظمته وهي من أصول الإيمان، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه .

الثانية: معرفة حقارنة النفس وخشيتها وكونها عبداً مسخّراً مربوّباً حتى يتولد من المعرفتين: الاستكانة والانكسار والخشوع ، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم يتمتّز معرفة حقارنة النفس بمعرفة جلال الله لا ينتمي حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغني عن غيره، الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارنة النفس وحاجيها لم تقترب بها .

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس يتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذه مشيئته فيه مع قلة المبالغة به وانه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع .

وبالجملة، كلما زاد العلم بازداد الخشية والهيبة .

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنّة بالصلاحة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة. وأما الحياة فباستشعار التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب

النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وحيث داولها وميلها إلى الحط العاجل في جميع أفعاله مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله، والعلم بأنه مطلع على السريرة وخطرات القلب، وان دقّت وخفيت، وهذه المعرفة إذا حصلت يقيناً أنبعث منها بالضرورة تسمى الحياة . (انتهى كلامه رفع مقامه) .